﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استدراكٌ بنفي أيّ سلطانٍ لإبليسَ؛ دفعًا لتوهّمِ ذلك

لَمّا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ رُبَّما أوهمَ أنَّ لإبليسَ أمرًا بنَفْسِه؛ فنفاه هنا، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾[1]؛ أيْ: إنَّ إغواءَ الشّيطان لأهلِ سبأ ولأشباههم من بني آدمَ لم يكنْ عن قسرٍ وإكراهٍ، وإنّما كان عن اختيارٍ منهم؛ ليتميّزَ الخبيثُ من الطّيّب[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾: (سلط) أَصْلٌ واحِدٌ يدلُّ على القوَّة والقَهْر، ولِذَلِكَ سُمّيَ السُّلْطانُ سُلْطانًا[3]؛ "لأنّه يتمكّنُ من قهرِ رعيّته على ما يريد"[4]، والسُّلطانُ: الحُجَّةُ والبُرهانُ، والسُّلطانُ: الوالي والحاكمُ ذو القُدرةِ الظّاهرةِ الواضحةِ، والسُّلطان إنّما سُمّيَ سُلْطانًا لأَنّه حجّةُ اللّهِ في أَرضه، ولأنّه تُقامُ بِهِ الحُجَّةُ والحُقوق[5]، والمُراد بالسّلطان هنا: التّسلّطُ بالقهرِ والغَلبةِ والإكراه[6]، أَو ما له مِنْ تَسَلُّطٍ واسْتيلاءٍ بِالوَسْوَسَةِ والإسْتِغواء[7].

2) ﴿شَكٍّۗ﴾: (شكّ) أصلٌ يدلّ على التَّداخُلِ، ومنه الشَّكُّ، الَّذي هوَ خِلافُ اليَقينِ، إنَّما سُمّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الشّاكَّ كَأَنَّهُ شُكَّ لَهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 284.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سلط).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سلط).
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 284.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 246، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 540.

الأَمْرانِ في مَشَكٍّ واحِدٍ، وهوَ لا يَتَيَقَّنُ واحِدًا مِنْهُما[1]، والشّكُّ: هو الارتيابُ، والتَّرَدُّدُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ سَواءٌ اسْتَوَى طَرَفاهُ أَوْ رَجَحَ أَحَدُهُما عَلَى الآخَرِ[2]، وهو اعتدالُ النّقيضَين عند الإنسان وتَساويهُما، وذلك قد يكون لوجودِ أمارَتَين مُتساويَتَين عند النَّقيضَين، أو لعدَمِ الأمارةِ فيهما، والشَّكُّ: ضرْبٌ من الجَهل[3]، ومعنى الشّكّ في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ؛ أي: الارتيابُ وعدمُ اليقين.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إبليسُ امتحانٌ من اللهِ ليَميزَ المؤمنَ من الكافر

يقول تعالى ذِكْرُه: وما كان لإبليسَ على هؤلاءِ القوم الذين وصفَ صفتَهم من حُجّةٍ أو قُدرةٍ وتسَلُّطٍ واستيلاءٍ إلّا أمانيَّ وغرورًا دعاهم إليها، ولكنْ نحن سلَّطناه عليهم بسلطاننا، وملكّناهُ قيادَهم بقَهْرنا[4]؛ ليُعْلَمَ حزبُنا وأولياؤنا، وهم مَن يُصَدّقُ بالبَعثِ والثّوابِ والعقابِ، مِمَّنْ لا يوقِنُ بالمعادِ، ولا يُصدّقُ بثوابٍ ولا عقابٍ؛ عِلمًا يترتَّبُ عليه الجزاءُ، وربُّك - يا محمَّد - على أعمالِ هؤلاء الكفرةِ به وغيرِ ذلك من الأشياءِ كلّها، حَفيظٌ لا يَعْزُبُ عنه علمُ شيءٍ منه، وهو مُجازٍ جميعَهم يومَ القيامة بما كسبوا في الدّنيا من خيرٍ وشرٍّ[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

إخبارٌ عن حالِ إبليسَ في انتفاءِ سلطانه على مَنِ اتّبعَه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ واوُ الحال، والمعنى: ولقد صدّقَ عليهم إبليسُ ظنّه فاتّبعوه، والحالُ أنّ إبليسَ ما كان له من سلطان[6]، ويحتملُ أنْ تكون واوَ العطف[7]، والمعطوفُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكّ).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (شكك).
(3) الرّاغب، المفردات: (شكك).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 393.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 86، وصالح، الإعراب المفصّل: 9/ 333.

عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾، فكلاهما تُخْبِرُ عن إبليسَ، فالأوْلى: أخبرتْ أنّه صدقَ ظنُّ إبليسَ على مَنِ اتّبعه، والثّانية: أخبرتْ أنّ إبليسَ لم يكنْ له أيُّ سلطانٍ عليهم.

معنى (ما) ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ نافيةٌ[1] غيرُ عاملة، وهي لنفي الحال، وفيها معنى التّأكيد[2]، فقد أكّدتْ نفيَ حالِ أنْ يكونَ لإبليسَ أيُّ سلطانٍ على مَنِ اتّبعوه أو على غيرهم.

تأكيدُ نفي حالِ أنْ يكونَ لإبليسَ أيُّ سلطانٍ

دلالة التّعبير بالماضي: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾:

استعملَ البيانُ الإلهيُّ فعلَ الكون الماضي المنفي (ما كان) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ "للدّوام في النّفي"[3]، إذ فعلُ ﴿كَانَ﴾ في النّفي مع ﴿مِّن﴾ الَّتي تُفيدُ الاستغراقَ في النَّفي يُفيدُ انتفاءَ السُّلطانِ؛ أي: الملكِ والتَّصريفِ للشَّيطانِ؛ أيْ: ليستْ له قدرةٌ ذاتيةٌ هو مستقلٌ بها يتصرّف بها في العالَم كيف يشاء؛ لأنَّ تلكَ القدرةَ خاصّةٌ باللّه تعالى[4].

انتفاءُ أن يكون لـلـشّـيـطـانِ سلطانٌ مستمرٌّ عبرَ الأزمان

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لَهُۥ﴾:

لام ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ معناها الاختصاص؛ أيْ: نفيُ أنْ يكونَ لإبليسَ أيُّ سلطانٍ خاصّ به على الذين اتّبعوه، وليس له أيُّ قدرةٍ ذاتيّة مستقلٍّ بها، يتصرّف بها في العالَم كيف يشاء، وضمير الهاء في ﴿لَهُۥ﴾ يعودُ على إبليسَ[5]، الذي ورد ذِكْرُه في الآية السّابقة: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾، والمعنى: وما كان لإبليس من سلطانٍ على الذين اتّبعوه.

ليس لإبليسَ أيُّ سلطانٍ خاصّ وقـدرةٍ ذاتيّة مستقلٍّ بها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 289.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 494.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 183.
(5) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 153.

معنى (على) ودلالتُها في ﴿عَلَيْهِم﴾:

لا تسلّطَ قَهْرٍ واستعلاءٍ لإبليسَ على القومِ الذي أغواهم

(على) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ حرفُ جرٍّ يفيدُ الاستعلاءَ والتمكّن، والمُراد: نفيُ أنْ يكون لإبليس أيُّ استعلاءٍ واستقدارٍ وتسلّطٍ قاهرٍ عليهم، فلم يقهرهم على الكفر[1]، والضّمير في ﴿عَلَيْهِم﴾ يعودُ على القوم الذين أغواهُم[2]، وهم مَن عادَ عليهم ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في الآية السّابقة: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾؛ أيْ: "ما كان لإبليس على الذين صار ظنّه فيهم صدقًا"[3]؛ أيْ: على أولئك الكفّار[4] من قومِ سبأ وغيرِهم.

سرُّ تقييد الكون المنفي بـ﴿عَلَيْهِم﴾:

في نفي أيِّ تسلّطِ قهرٍ لإبليسَ إقامةٌ للحُجّةِ على مَنِ اتّبعَ وساوسَه

قيّد البيانُ الحكيم الكونَ المنفيَّ بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ ولم يَقُلْ: (وما كان له من سلطان)؛ للإيحاءِ بالحمايةِ الإلهيّة من تسلّط إبليس على مَن اتّبعوه وغيرهم، ومن ثَمّ إيحاءٌ بالحريّة التي يملكونها في مواجهةِ وساوسِه؛ "أيْ: لم يَقْهَرهم إبليسُ على الكفر، وإنّما كان منه الدّعاء والتّزيين"[5]، وفي هذا توبيخٌ لهم وإقامةٌ للحُجّةِ عليه؛ إذ سارعوا لاتّباعه بسببِ وساوسه وإغواءاته، وهو مثلُهم عبدٌ عاجزٌ مقهورٌ، ذليلٌ خائفٌ مدحورٌ[6]، وفي هذا القيد مزيدُ تطمينٍ للمؤمنين؛ فإذا كان ليس لإبليس أيّ: سلطانٍ على مَن اتّبعوه، فكيف يكون له أيُّ سلطانٍ على المؤمنين؟!

غرض تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على قوله: ﴿عَلَيْهِم﴾:

في الإيماءِ بأثرِ قوّةِ غوايةِ إبليس تحذيرٌ من طرقِ غوايته

قدّم البيانُ الحكيمُ المُتعلّقَ ﴿لَهُۥ﴾ على القيد ﴿عَلَيْهِم﴾ في قوله

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 417.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 153.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 61.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 294.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 293.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، ولم يَقلْ: (وما كان عليهم له من سلطان)؛ وذلك لكونِ المقامِ والسّياق حديثًا عن إبليس وظنّه، ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ فكان تقديمُ ما يتعلّق به أنسبَ، وللإشارة إلى قوّة أثرِ هذه الغواية التي سمح اللّهُ بها امتحانًا للنّاس؛ ليَميزَ المؤمنَ من غيره، ومن ثمّ التّحذير ممّا سيقومُ به إبليسُ من طرقِ الإغواء.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ حرفُ جرٍّ زائدٍ للتّوكيد[1]، والتّقدير: (ما كان له عليهم سلطان)، والغرضُ منها توكيدُ عموم النّفي واستغراقِه[2]؛ أيْ: تأكيدُ نفي أيِّ سلطانٍ لإبليسَ على الذين اتّبعوه، ولا على غيرهم.

تأكيد نفي أنْ يكون لإبليسَ أيُّ سلطان

دلالة التّعبير بـ (السّلطان):

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ لاتّساع دلالته ومناسبته للسّياق؛ إذ من معاني السّلطان: القوّةُ والقهرُ والغلبةُ والنّفوذ والسّيطرة[3]، والقُدرةُ القاهرة، والحُجّةُ، والبرهانُ، والمعنى المحوريّ له: التّمكّنُ من القهرِ من بعيد[4]، وهذه المعاني تتناسبُ مع السّياقِ الذي ينفي عن إبليسَ أيَّ قوّةٍ وأيَّ تسلّطِ غلبةٍ ونفوذٍ وقهرٍ يقهرُ به مَن اتّبعه على الكفر، وليس له أيُّ حُجّةٍ وبرهانٍ في اتّباعه؛ أيْ: لم تكنْ له حجّةٌ يستتبعهم بها، ولا برهانٌ على صدقه، وإنّما اتّبعوهُ بشهوةٍ وتقليدٍ وهوى نفس؛ لا عن حُجّةٍ ودليلٍ[5]، وليس له أيُّ تسليطٍ واستيلاءٍ

في نفي أيِّ قوّةٍ وقهرٍ وحُجّةٍ لإبليسَ مبالغةٌ في إقامةِ الحُجّة على مَن اتّبعه

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 153.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 183.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط)، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (سلطن).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلط).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 293.

بالوسوسةِ والاستغواءِ إلّا لحكمةٍ، وفي هذا مبالغةٌ في إقامةِ الحُجّة على مَنِ اتّبع.

لطيفةُ تنكير مفردة ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ مُفردةَ ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾؛ لإفادةِ العموم، لكونها جاءتْ نكرةً في سياق النَّفي؛ أيْ: ليس لإبليسَ "أيّ تسلّطٍ قاهرٍ لشيء من الأشياء بوجهٍ؛ لأنّه مثلُهم في كونه عبدًا عاجزًا مقهورًا، ذليلًا خائفًا مدحورًا"[1].

إبليسُ ضعيفٌ مقهور لا يملك إلّا الوساوسَ

غرض تقديم ﴿لَهُۥ﴾ و﴿عَلَيۡهِم﴾:

قدّم البيانُ الإلهيُّ المسندَ ﴿لَهُۥ﴾ والقيدَ ﴿عَلَيۡهِم﴾ على المُسندِ إليه ﴿مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾؛ اهتمامًا بالعلاقةِ بين إبليسَ وبني آدمَ، وتنبيهًا على خطورتها، وتحذيرًا لبني آدمَ من غوايةِ إبليسَ الذي دعاهم، فاستجابوا له دون أيّ سلطانٍ قاهر، وإنّما هي وسوسةٌ وإغواءٌ؛ امتحانًا لهم.

اهتمامٌ بالعلاقةِ بين إبليسَ وبني آدمَ، وتنبيهٌ على خطورتها وتحذيرٌ منها

معنى ﴿إِلَّا﴾ ودلالتُها في جملة ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾:

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أداةُ استثناءٍ، والاستثناءُ إمّا استثناءٌ متّصلٌ مُفرَّغٌ من أعمِّ العلل[2]، والمعنى: وما كانَ له عليهم من تسلّطٍ لعلّةٍ من العلل إلّا ليتعلّق علْمُنا بمَن يؤمنُ ومَن لا يؤمنُ؛ لأنّه سبحانه قد عَلِمَ ذلك علمًا أزليًّا، والحصرُ حقيقيّ[3]، ويجوز أنْ يكون الاستثناءُ من عموم ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾، وحُذفَ المستثنى ودلَّ عليه بعلّته، والتّقدير: إلّا سلطانًا - وهو سلطانُ الوسوسة - لنعلمَ مَن يؤمنُ بالآخرة، فيدلّ على أنّه سلطانٌ مجعولٌ له بجعلِ اللّهِ؛ بقرينةِ أنّ تعليله مُسندٌ إلى ضميرِ الجلالة[4].

استثناءٌ يُشيرُ إلى حكمةِ الله من وسوسةِ إبليسَ لبني آدمَ

وربما كان الاستثناءُ منقَطِعًا؛ وعليه يكون المعنى: لا سُلطانَ لهُ

الوسوسةُ اختبارٌ لإيمان الخَلْق

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 131، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 184.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 495.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 184.

عليهم، ولكِنِ ابتلَيْناهم بوَسوستِه؛ لِنَعلَمَ من يؤمنُ بالآخرة ممّنْ هو في شكّ منها[1]، وإنّما استعارَ ﴿إِلَّا﴾ موضع (لكن)؛ إشارةً إلى أنّه مكّنه تمكينًا تامًّا صارَ به كمَنْ لهُ سلطانٌ حقيقيٌّ[2].

معنى (اللّام) ودلالتُها في قوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾:

تسليطُ إبليسَ على بني آدمَ بالوسوسةِ والاستغواءِ لأجلِ امتحانهم

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ﴾ هي لامُ العاقبة[3]، والمعنى: إلّا ليَؤولَ الأمرُ إلى العِلْمِ الواقعِ بمَن يؤمنُ بالآخرة ممَّن هو في شكٍّ فيها، أو هي لامُ التّعليل[4]، والمعنى: وما كان تسليطنا إبليسَ عليهم بالوسوسةِ والاستغواء إلّا لأجلِ أنْ نعلمَ علمَ ظهورٍ ونميِّز[5].

المُراد بالعِلْم في حقّ الله في الفعل ﴿لِنَعْلَمَ﴾:

إظهارُ اللهِ لِما عَلِمَ أنّه سيكون، فيُجازي على العملِ لا على عِلْمه به

علّلَ سبحانه تمكينَ إبليسَ من الوسوسةِ والإغواء لبني آدمَ بقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ﴾، مع أنّه عالمٌ بجميعِ الأمور بما كان وما سيكون، وقد كان هذا معلومًا عنده سبحانه بالغيب، والجواب عن ذلك: أنّ المُرادَ بالعِلْم هنا عِلْمُ وقوعٍ وظهور؛ أيْ: ليَظهرَ ما علمناه أزلًا في شأنهم، والمعنى: لنَعْلَمَ إيمانَ المؤمنِ ظاهرًا، وكفرَ الكافرِ ظاهرًا موجودًا، أو المُراد من حصولِ العِلْم حصولُ مُتعلّقه مبالغةً؛ أي: فيظهرَ متعلّقُ عِلْمنا من صحّةِ الجزاءِ على الكفرِ والإيمان[6]، أو يكون العِلْمُ بمعنى التّمييز، والمعنى: ليتميّزَ المؤمنُ من الشّاكّ[7]، أو يكون المعنى: لنعاملهم معاملةَ مَن كأنّه لا يعلم، وإنّما يعمل ليعلم[8].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 371.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 492.
(3) الصّاويّ، حاشية على الجلالين، ص: 1531.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 265، وصالح، الإعراب المفصّل: 9/ 333، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 153.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 247.
(6) ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/ 145، والواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 354، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 679، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 246.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 246.
(8) ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/ 145.

بلاغة التّضمين في الفعل ﴿لِنَعۡلَمَ﴾:

إظهارُ التّمييزِ بين المؤمن بالآخرة والشّاكّ فيها

كنَّى البيانُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾ بـ﴿لِنَعۡلَمَ﴾ عن إظهارِ التَّمييزِ بيْنَ الحالَين؛ لأنَّ الظُّهورَ يُلازِمُ العِلْمَ في العُرفِ، والمعنى: ليَظهرَ ويتميّزَ مَن يؤمنُ بالآخرةِ عمّن هو منها في شكّ فيعلمَه مَن يعلمُه، ويتعلّقَ علمُنا به تعلُّقًا جزئيًّا عند حصوله يترتّبُ عليه الجزاء[1]، أو أنْ يكون هذا التّعبير من قبيل التّضمين؛ أيْ: ضُمِّنَتْ ﴿لِنَعۡلَمَ﴾ معنى (نُمَيِّز)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِمَّنۡ هُوَ﴾؛ يعني: إلّا لِنُمَيِّزَ مَن يؤمنُ بالآخرةِ ممَّن هو منها في شكٍّ[2]، "والمُراد من حصولِ العِلْم حصولُ متعلَّقِه مبالغةً"[3].

معنى ﴿مَن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

تمييزُ الذي يؤمنُ بالآخرة هو علّةُ تمكينِ إبليسَ في تسلّطه على بني آدمَ

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾ إمّا موصولةٌ، في محلّ نصب مفعول ﴿لِنَعۡلَمَ﴾[4]؛ والمعنى: وما كان تسلُّطُه عليهم إلّا ليتعلَّقَ علمُنا بمَنْ يُؤمنُ بالآخِرةِ مُتميِّزًا ممَّن هو في شكّ منها تعلُّقًا حاليًّا يترتَّب عليه الجزاءُ، أو إلّا ليتميَّزَ المؤمنُ من الشّاكِّ، أو إلّا ليُؤمنَ من قُدِّر إيمانُه، ويشُكَّ من قُدِّر ضلالُه[5]، أو استفهاميّة سدّتْ مسدَّ مفعولي العِلْم، وتكون في محلّ رفع مبتدأ، وجملة ﴿يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ خبر[6].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

الإيمانُ بالآخرة تصديقٌ مستمرٌّ فهو اعتقادٌ وإقرارٌ وعملٌ

عبّر النَّظمُ الحكيم بلفظِ الإيمان دونَ التّصديق في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ولم يقلْ: (لنَعلمَ من يصدّق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 184.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 495، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 155.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 131.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 86.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 131.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 86.

بالآخرة)؛ لكون لفظِ الإيمانِ أعمَّ وأنسبَ للسّياق من لفظِ التّصديق، فالإيمانُ في اللّغة التّصديق[1]، وفي الشّرع: اعتقادٌ بالجَنانِ، وإقرارٌ باللّسانِ، وعملٌ بالأركان[2]؛ أي: العَمَلُ بالأعضاء بِمُقْتَضى ما صدّقَ بِهِ بإقراره، واعتقده بِقَلْبِه[3]، كما أنّ الإيمانَ يقابله الكفرُ، والصّدقُ يقابلهُ الكذبُ[4]؛ فدلَّ التّعبيرَ بلفظِ الإيمان أنّ مَن يؤمنُ بالآخرة مقابِلُ مَن يكفرُ بها، ولا يكون العبدُ مؤمنًا بها حتّى يعتقدَ بقلبه وجودَها، ويُقرَّ بلسانه، ويعملَ ويستعدّ لذلك اليوم من خلال اتّباع أوامر اللّه ونواهيه، واجتنابِ الشّيطان ووساوسِه.

دلالة صوغ الفعل ﴿يُؤْمِنُ﴾ مضارعًا:

يَنْبَغي للمؤمن أنْ يترقّى في العرفان والإيقان

أتى السّياق القرآنيّ الحكيم بصيغة المضارع ﴿يُؤْمِنُ﴾ التي تدلُّ على الاستمرارِ التّجدّدي؛ للدّلالةِ على أنّ الإيمانَ بالآخرة لا يغيبُ عنه، وللإشارَةِ إلَى أنّه يَنْبَغي للمؤمن أنْ يترقّى في العرفان والإيقان، بحَيْثُ كلّما وضعَ عصاه بدا له سفرٌ في الإيقان إلَى أنْ يخرجَ الرّوح عن الأبدان[5].

معنى (الباء) ودلالتُها في قوله: ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾:

إيمانُ المؤمن بالآخرة قويٌّ ثابتٌ مرتبطٌ بها

الباء في قوله تعالى: ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ﴾ حرفُ جرٍّ معناه الإلصاق، والجارُّ والمجرور مُتعلّق بالفعل ﴿يُؤْمِنُ﴾، والمعنى: مَن يكون إيمانه مُلتصقًا بالآخرة لا ينفكّ عنها، وهذا فيه إشارةٌ إلى قوّةِ إيمانِ المؤمن وثباته، وارتباطِ أعماله بالآخرة واستعداده لها.

سِرُّ إيثار التّعبير بـ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾:

الإيمانُ مطلوبٌ بكلّ ما في الآخرة، والشّكّ بأيّ شيء منها كفرٌ

عبّر النّظمُ بلفظ ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أمن)، (صدق).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 124.
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 418.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أمن)، (صدق).
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 496.

﴿يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دون غيرها كـ(السّاعة) أو (القيامة)؛ لكون لفظ (الآخرة) أعمَّ من (السّاعة) و(القيامة)، وأنسبَ للسّياق الذي يتحدّث عمَّن يؤمنُ وعمَّن يشكّ بالنَّشأةِ الثّانية والحياةِ الثّانية بعد الموت بكلّ ما فيها؛ من بعثٍ ونشورٍ وحسابٍ ...الخ[1]، ويُعبّرُ بالآخرة عن النَّشأة الثّانية، كما يُعبَّر بالدُّنيا عن النَّشأة الأولى[2]، فالآخرةُ صفةٌ غالبةٌ للدّار أو الحياة التي بعد دار الدُّنيا[3]، وليس السّياق مقتصرًا في الحديث عن وقتِ فناءِ العالم، وغايةِ المهلة التي أُمهلها النّاسُ، وموتهم عند الصّيحةِ الأولى، وهو ما يُعبَّر عنه بالسّاعة[4]، وكذلك ليس السّياقُ عنِ انتصابِ النّاس وقيامِهم من قبورهم لله سبحانه؛ ليُقيمَ العدلَ فيهم، وهو ما يدلّ عليه لفظ القيامة[5].

معنى ﴿مِمَّنۡ﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا﴾:

فـصـلٌ وتـمـيـيـزٌ لضِدّ الذي يؤمن بـالآخـرة وهـو الذي يشكُّ بها

﴿مِمَّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا﴾ مركّبة من حرفين؛ أي: (مِنْ مَنْ هو منها في شكٍّ) فـ (مِنْ) الأولى حرفُ جَرّ، ومعناه: الفصلُ والتّمييز، فهي داخلةٌ على ثاني الضِّدَّين، في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ﴾، فمَنْ يشكّ في الآخرة ضِدُّ مَن يؤمنُ بها، وأمّا (مَنْ) الثّانية فهي اسم موصول بمعنى (الذي)، والمعنى: مِنَ الذي هو منها في شكّ.

معنى (مِنْ) ودلالتُها في ﴿مِنۡهَا﴾:

شـكُّ مَـن يتبع إبليسَ ناشئٌ عن أمر الآخرة

﴿مِنۡهَا﴾ في قوله: ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعلّق بـ﴿شَكٍّۗ﴾[6]؛ أيْ: بحالٍ من شكّ، و(مِنْ) للابتداءِ المجازيّ؛ أيْ: في

(1) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (أَخَرَ).
(2) الرّاغب، المفردات: (آخر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أَخَرَ).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.

شكّ ناشئٍ عن أمرِ الآخرة[1]؛ أيْ: إنّ (مِنْ) تُشيرُ إلى المصدر الذي أدّى إلى الشّكّ.

أو أنْ تكون (مِنْ) بمعنى (في) لكون الشّكِ يتعدّى بـ(في) والعدول إلى كلمةِ (مِنْ)؛ للمبالغة والإشعارِ بشدّته، وأنّه لا يُرجى زوالُه[2]، كما أنّ التّعبير بها أخصرُ في الكلام؛ إذِ التّعبيرُ بـ(في) يقتضي تقديرَ مضاف، وهو لفظ (وجود)؛ أيْ: (هو في شكٍّ في وجودِ الآخرة)؛ حتّى لا يختلّ المعنى، ويظنّ أنّ الشّكّ حاصلٌ في الآخرة، والضّمير يعودُ على الآخرة، والمعنى: ممّن هو من الآخرة في شكٍّ[3].

غرض تقديم القيد ﴿مِنْهَا﴾ على المُتعلّق ﴿فِي شَكٍّ﴾:

قدّمَ البيانُ الحكيمُ القيدَ ﴿مِنْهَا﴾ على المتعلّق ﴿فِي شَكٍّ﴾، ولم يَقُلْ: ممّن هو في شكٍّ منها؛ مبالغةً في بيانِ خطورةِ الآخرة وأهمّيّتِها، وأنّها ملاكُ الإيمان بالله تعالى، وإشارةً إلى شدّةِ شكّ منِ اتّبعَ إبليسَ في الآخرة[4].

بيانُ خطورةِ الآخرة وأهمّيّتِها، وأنّها ملاكُ الإيمانِ بالله

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿فِي شَكٍّ﴾:

جيءَ في جُملةِ ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ بحَرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾، ولم يُقلْ: ممّن هم شاكّون أو يَشُكّون؛ للدّلالةِ على إحاطةِ الشَّكِّ بنُفوسِ مَن يتّبع إبليسَ[5]، كإحاطةِ الظّرفِ بالمظروف[6]، فهو شكٌّ كثيرٌ، ولكثرته صارَ مُحيطًا بهم، وللإشعارِ بشدّته وأنّه لا يُرجى زوالُه[7].

جَعْلُ الشّكّ ظَرفًا لمَن يتّبع إبليسَ إشعارٌ بكثرته وأنّه لا يُرجَى زوالُه

سِرُّ إيثار التّعبير بالـ﴿شَكٍّ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

عبّر البيانُ القرآنيّ بلفظِ الشّكِّ دونَ الكفر في قوله تعالى:

مجرّدُ الشّكِ بوجودِ الآخرةِ يُحبطُ العملَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 22.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 491، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 274.
(3) ابن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 2/ 757.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 274.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.
(6) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 495.
(7) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 274.

﴿لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ﴾، ولم يَقُلْ: (مَن يؤمنُ بالآخرة ممَّن لا يؤمنُ بها، أو ممَّن يكفرُ بها)، مع أنّ الإيمان يقابله الكفرُ وفقَ المقتضى اللّغويّ؛ أيْ: عدلَ عن التّعبيرِ بالكفرِ إلى التّعبير بالشّكّ، واكتفى به؛ وذلك للإشارة إلى أنّ أدنى شكٍّ بوجود الآخرة يحبطُ العمل، لا مجرّدَ الكفر الجازم بها فقط[1]، ولأنّ مَن شكّ بالآخرة شكّ بكلّ شيء في الدّين، وتنكيرُ الشّكّ لإفادة العموم والتّقليل؛ أيْ: ليَميزَ اللّهُ بين المؤمن بالآخرة ممَّن في قلبه أدنى شكٍّ مهما كان قليلًا.

نُكْتَةُ المغايرة بين نوع الخبر في الآية:

الإيمانُ بالآخرة طـارئٌ على كفرهم وشكّهم بالآخرة متأصّلٌ فيهم

خولِفَ في النَّظم بيْنَ الصِّلتين؛ فجاءتْ جُملةُ ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فعليَّةً، وجاءتْ جُملةُ ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ﴾ اسميَّةً؛ مراعاةً لحالِ كفّارِ قريش؛ لأنَّ الإيمانَ بالآخرةِ طارئٌ على كُفرِهم السّابق، ومُتجدِّدٌ ومُتزايدٌ آنًا فآنًا؛ فكان مُقْتضى الحالِ إيرادَ الفعلِ في صِلَةِ أصحابِه، وأمّا شَكُّهم في الآخرةِ فبخلافِ ذلك؛ هو أمْرٌ مُتأصِّلٌ فيهم، فاجتُلِبَت لأصحابِه الجُملةُ الاسميَّةُ[2]، وكذلك للإشارة بالجملة الفعليّة التي تدلّ بفعلها المضارع على الدّوام التّجدّدي إلى أنَّه يَنْبَغي للمؤمن أنْ يترقّى في العِرفان والإيقان، إلى أنْ تخرجَ الرّوحُ عن الأبدان، وللإشارةِ بالجملة الاسميّة إلى أنّ المهلكَ هو الثّباتُ على الشّكّ بالآخرة إلى الموت[3].

نُكْتَةُ الاقتصار على قضية الإيمان بالآخرة:

جُحودُ كفّارِ قريش بالآخرة قَرينٌ للشِّركِ رغمَ أنّها ملاكُ الإيمان بالله

اقتصرَ البيانُ القرآنيُّ مِن عِلَلِ تَمكينِ الشَّيطانِ على تَمييزِ مَن يُؤمِنُ بالآخِرةِ ومَن لا يُؤمِنُ بها؛ لِمُراعاةِ أحوالِ الَّذين سيقَتْ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 274.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 184.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 496.

إليهم الموعظةُ بأهلِ سَبأٍ، وهم كفّارُ قُريشٍ؛ لأنَّ جُحودَهم الآخرةَ قَرينٌ للشِّركِ ومُساوٍ له؛ فإنَّهم لو آمَنوا بالآخرةِ لآمَنوا برَبِّها، وهو الرَّبُّ الواحدُ الَّذي لا شَريكَ له، وإلّا فإنَّ عِلَلَ جَعلِ الشَّيطانِ للوَسوسةِ كَثيرةٌ، مَرجِعُها إلى تَمييزِ الكُفّارِ مِن المؤمنينَ، والمُتَّقينَ مِن المُعرضينَ[1]، ولبيانِ أهميّة الإيمانِ بالآخرة وبالبعثِ والحسابِ والجزاءِ، وأنّه هو ملاكُ الإيمانِ باللّه، وبآياتِ اللّه، وبرسلِ اللّه، فليس مؤمنًا باللّه، ولا بآيات اللّه ولا برسلِ اللّه؛ إلّا مَنْ كان مؤمنًا باليوم الآخر[2].

معنى (الواو) ودلالتُها في جملة ﴿وَرَبُّكَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ استئنافيّة[3]، والجملةُ مُستأنفةٌ مسوقةٌ لتعليلِ ما قبلها[4]؛ أيْ: لا سلطانَ ولا قهرَ للشّيطانِ على الإنسان؛ لأنّ اللّهَ يحفظُ القلوبَ، فلا يستطيعُ الشّيطانُ أنْ يجبرها أو أنْ يقهرها، فالحفيظُ هو: "الذي لا يخرجُ عن مقدرته ما هو في حفظه"[5]، ولذا قال اللّه تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: 82 - 83]، وكونه كذلك يعلمُ عِلمَ ظهورٍ مَن يؤمنُ بالآخرة ومَنْ يشكُّ بها؛ لأنّ من أسمائه الحفيظَ؛ وهو الذي يقتضي العِلْمَ والقُدرة، إذ بمجموعهما تقومُ ماهيةُ الحفظ.

استئنافٌ يُعلّلُ نفيَ قهرِ إبليسَ للإنسان

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بعنوان الرّبوبيّة في ﴿وَرَبُّكَ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ ذِكْرَ لفظِ الرّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ ولم يَقُلْ: (واللّه على كل شيء)؛ لكونه أنسبَ للسّياق الذي تضمّن الإشارةَ إلى قوّةِ إغواءِ إبليسَ وتأثيرِه

رحمةُ اللّهِ بعباده ولطفُهِ بهم تطمينٌ لقلوبهم وتثبيتٌ لهم أمامَ مُغرياتِ إبليسَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 184.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 803.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 217.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 265.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.

على النّاس، وشدّةِ ما يلاقونه منه؛ لأنّ في الرّبوبيّة معنى الرَّحمة والتَّربية والإشعارِ باللّطفِ والإحسانِ والعطاء، وكذلك للتّعبيرِ عن مدى رحمةِ اللّهِ بعباده ولطفِهِ وعنايتِه وإحسانه بهم؛ إذ لم يُسَلِّطْ عليهم إبليسَ تسليطَ قهرٍ، وإذ حفظَ قلوبَ عبادِه المؤمنين المخلصين من إغوائه، فهو المُدبّرُ لأمورهم المُحسِنُ إليهم بإخزاءِ الشّيطان عن قهرهم وإخسائه عنهم، وفي هذا تطمينٌ لقلوبهم وإزالةٌ للمخاوفِ التي قد تكونُ لحِقتهم ممّا قد يُضمرهُ لهم إبليسُ اللّعينُ، وكذلك سببٌ لثباتهم أمامَ مغرياته.

مرجع ضمير الخطاب في ﴿وَرَبُّكَ﴾:

مرجعُ ضمير الخطاب في ﴿وَرَبُّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ هو النّبيّ ﷺ، والإضافةُ إضافةُ إحسانٍ وتشْريفٍ له وتكريمٍ، وفيها إشارةٌ إلى تسليته بحفظِ أُمّته، بإخزاءِ الشّيطان وردِّ كيدِه عن المؤمنين المخلصين؛ أيْ: فهو "المحسِنُ إليك بإخزاءِ الشّيطان بنبوّتك، وإخسائِه عن أمّتك"[1].

من إكرامِ اللهِ وتشريفِه لنبيّه ﷺ إخزاءُ الشّيطانِ وإخساؤه

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُها في: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ حرفُ جرّ يدلُّ على الاستعلاء، وقد أفادَ عظمةَ عِلْمِ اللّه وقدرته، وأنّ حفظه متمكّنٌ ومحيطٌ بكلّ شيء من الماديّاتِ والمعنويّات، والمشاهداتِ والغيبيّات، إذ شملها الاستعلاءُ باقترانِ ﴿عَلَىٰ﴾ بلفظ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾.

حفظُ اللهِ متمكّنٌ ومحيطٌ بكلّ شيء

دلالة التّعبير بلفظ العموم ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾:

التّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾ وإضافته إلى ﴿شَيْءٍ﴾ وهي نكرةٌ يفيدُ العمومَ، وكذلك في قوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يفيد مع العموم الاستقصاءَ الشّاملَ لكلِّ ما يصْلُحُ أنْ يُطلقَ عليه لفظُ شيء، ويتصوّره الذّهن؛ أيْ: أفادَ الإحاطةَ التّامّةَ لحفظِه سبحانه لكلّ

لا يَخرُجُ عن عِلمِه وقدرتِه سبحانَه شَيءٌ مِنَ الكائناتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 492.

شيء، فلا "يَخرُجُ عن عِلمِه وقدرته شَيءٌ مِن الكائناتِ"[1]، وهو حفيظٌ على كلّ شيء؛ يحفظُ أعمالَ العبادِ ليجازيَهم عليها من خيرٍ أو شَرٍّ، ويحفظُ عبادَه وأولياءَه من مكايدِ الشّيطان، والوقوعِ في الذّنوبِ والمعاصي، واتّباعِ الشّيطان والمهالك، ويحفظ خلقَه وكونَه حتّى تنقضيَ آجالُهم.

إيثار التّعبير بالشّيئيّة، والغرض من تنكيرها في ﴿شَيْءٍ﴾:

حفظُ الله بالغٌ شـامـلٌ لـكـلّ موجود

لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ في أصلِ مادّته: عبارةٌ عن كلّ موجود، إمّا حسًّا كالأجسام، أو معنًى كالأقوال[2]، فهو لفظٌ يقعُ على كلّ ما أُخبر عنه، وهو أعمُّ العامّ[3]، وقد أفادَ استعمالُه في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الشّمولَ التّامّ، والاستقصاءَ الشّاملَ، وخاصّةً أنّه أُضيف إلى لفظ ﴿كُلِّ﴾ الدّالّة على العموم؛ أيْ: إنّ حفظه تعالى شاملٌ لكلّ شيء، فلا يعزُبُ عنه مثقالَ ذرّة، وتنكيرُ لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ لإفادةِ المبالغةِ في شموليّة وعموم حفظِه تعالى لكلّ شيء، ولمراعاةِ عادةِ القرآن؛ إذ لم يَرِدْ لفظُ ﴿شَيْءٍ﴾ في القرآن إلّا نكرةً.

غرض تقديم القيد ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾:

إبـرازُ وتـعـزيـزُ معاني شموليّةِ الحفظِ الإلهيّ لكلّ شيء

قدّم البيانُ القرآني الجارَّ والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على الخبر ﴿حَفِيظٌ﴾؛ اهتمامًا بالمقدَّم؛ وهو شموليّةُ حفظِ الله لكلّ شيء؛ وكأنّه قال: (وربّكَ على كلّ شيءٍ على وجهِ الخصوصِ حفيظٌ)، وذلك تثبيتًا لهذا المعنى في ذهنِ المخاطَبين؛ لإبرازِ شموليّةِ الحفظِ الإلهيّ لكلّ شيء سبحانه، حيثُ يُؤكّدُ التقديمُ أنَّ اللّهَ ﷻ يحفظُ كلَّ شيء بلا استثناء، ممّا يعكِسُ عظمتَهُ وسعةَ قدرته، وتشويقًا للمُؤخّر وهو اتّصافه سبحانه بالحفظ، وكذلك قُدِّمَ ملائمةً لفاصلةِ الآية التي بعدَها ﴿ظَهِيرٍ﴾.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.

(2) الرّاغب، المفردات: (شيأ).

(3) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شيأ).

بلاغة الكناية في ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾:

كنّى البيانُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ بصفة (الحفظ) عن القدرةِ والعِلْم؛ إذِ المعنى: وربّك على كلّ شيء قادرٌ وبه عالم؛ لأنّ مَن جهلَ الشّيءَ وعجزَ عنه لا يُمكنهُ حفظُه[1]، فالحفيظُ هو الذي لا يخرجُ عن مَقدرته ما هو في حفظه، وهو يقتضي العِلْمَ والقُدرةَ؛ إذ بمجموعهما تقومُ ماهيّة الحفظُ، ولذلك يُتبَعُ الحفظُ بالعِلْم كثيرًا؛ كقوله تعالى: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55][2].

مَن جهلَ الشّيءَ وعجزَ عنه لا يُمكنهُ حفظُهُ

دلالة التّعبير بصيغة (فعيل) في ﴿حَفِيظٞ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿حَفِيظٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ بصيغةٍ على وزنِ (فعيل)، وهي من أبنيةِ المبالغة التي عدلَ بها عن (حافظ)؛ لكونها تدُلُّ على قوّةِ الفعلِ، فلا يخرجُ عن مقدرته سبحانه ما هو في حفظه[3]، أو أنْ يكون ﴿حَفِيظٞ﴾ بمعنى محافظ عليه[4]، فإنَّ (فَعيلًا) و(مُفاعِلًا) صيغتانِ متآخيتان[5]، وتنكير ﴿حَفِيظٞ﴾ للتّفخيم والتّعظيم، فحفظُهُ سبحانه لا يُقادَرُ قَدْرُه.

حـفـظُ الـلـهِ عظيمٌ فخيمٌ، فلا يخرجُ عن مَقدرته ما هو في حفظه

علاقة جملة التّذييل بمضمون الآية الكريمة:

جملةُ ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ تَذْييلٌ، وهذا التَّذْييلُ تَنَزَّلَ منزلةَ الاحتراسِ عنْ غيرِ المعنى الكِنائيِّ من قولِه تعالى: ﴿لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾؛ أيْ: ليَظْهَرَ ذلك لكلِّ أحدٍ، فتقومَ الحُجّةُ لهُم وعليهم[6]، فالحفيظُ سبحانَه لا يفوتهُ العِلْم بمَن يؤمنُ بالآخرة، ممَّن هو في شكٍّ منها، فهو يُحصي أعمالَ عباده من خيرٍ وشرّ، ويَحْفَظُ كلّ شيء ليجازيَهم عليه، وفي هذا التّذييل تطمينٌ

حفظُه سبحانُه لكلّ شيء تطمينٌ للمؤمن وتحذيرٌ للكافر

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 263.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 263.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 131.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 185.

للمؤمنِ بالآخرةِ الذي عصمَه اللّهُ وحفظَ قلبَهُ من استيلاءِ الشّيطانِ عليه، وتحذيرٌ ووعيدٌ للشّاكِّ بالآخرة المُتَّبِعِ للشّيطان ووساوسِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّكّ والرَّيب:

الشّكُّ اعتدالُ النّقيضَيْن، وضربٌ من الجهل يتناسبُ مع الشَّكِّ باليوم الآخر

الشّكُّ أصلٌ للرّيبِ وسببٌ فيه، فإنّ الإنسانَ يشكُّ أولًا، ثمّ يوقعهُ الشّكُّ في الرّيب[1]، والرّيبُ أخصُّ من الشّكّ[2]؛ الذي هو تردّدُ الذّهن بين أمرَين على حدٍّ سواء؛ أي: اعتدالُ النّقيضَين عند الإنسان وتَساويهُما، وذلك قد يكون لوجودِ أمارَتَيْن مُتساويَتَيْن عند النَّقيضَيْن، أو لعدَم الأمارة فيهما، فهو ضرْبٌ من الجَهل، وأمّا الرّيبُ فهو شكٌّ مع تُهمة[3]، أو شَكٌّ وخوفٌ، يُقال: رابَهُ الأَمْرُ؛ إذا أَدْخَلَ عَلَيْهِ شَكًّا وخَوْفًا[4]، واستعمالُ لفظِ الشَّكّ في الآية أبلغُ في ذَمّ الذين يشكّون باليوم الآخر؛ كونه أنسبَ مع عدمِ الدّليل لديهم ومع جهلهم.

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/ 106.
(2) الرّاغب، المفردات: (مري).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 264، والرّاغب، المُفردات: (شكك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ريب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»